«في شمسي دوار»

صوت من الجيل الجائع

بقلم أحمد طه الرفاعي

« ان الحضارات التي تنضج لا تمــوت قط بأهوال الخريف ، وانما تبدل ريشها ، والجمود وحده هو الذي يهدد بالخطر . » . بمثل هذه العبارات كان ينهي كلمته سان جون بيرس من على منصة تكريــم الشعر فيه . واذا كانت شجرة الشعر العربي قد أعطتنا ذات يــوم خضرة وظلا وفي يوم آخر طلعت الشمس لنجد الشجرة هيكلا تفــزل اخر اوراقه الصفراء هاوية الى الارض زمن عصور الانحطاط ، فلا بــد اذن من ان تبدل الشجرة ريشها – كما يحلو لبيرس ان يقول – ولا بــد اذن من هذا الايراق الجديد في الشعر العربي .

وما نسيت يوما تلك الرايات الشعرية القديمة مركوزة فــوق رأسي ورؤوس الاخريـن تشدني الـى الصحراء حيث يتعانق الشعــر والتاريخ ، ولم أنكر شيئا في الشعر انكاري للاصوات التي تحــاول الفصل بين شعرنا وتاريخنا ، بين شعرنا وحياتنا في كل حين .

وقصتي مع الشعر الحديث تبدأ خلال ندوات شعرية كنت احضرها هنا وهناك في بعض الامسيات ، كنت أخرج والرذاذ يغسل الطرقــات وصدى الكلمات العذبة تنطرح مجروحة كسلى في دربي . أهو الشعور بالحزن أو التفريج أو الكسل لا أدري . ولكنني كنت اشعر بخفة لدى سماعي لهذا الشعر المترنح ترنح السكارى ، هذا شعر لا يعتمد عـلى قرع الحروف النحاسي للوصول الى عتمات نفوسنا ، لا يعتمد عـلى السقوط الراسي السريع كما يسقط البرد في قاع البئر ولكنه ينســل جانبيا انسلال النبع . ولست أزعم ان كل ما هو حديث من الشعــر يروق لي ، لانني لا أميل الى الفلسفات الجافة التي انتهى اليها بعض رواد الحركة الشعرية الحديثة ، فانا أحب أن أقرأ وأتمتع وأسمــع وأستسلم ، أحب ان اجلس في ركن لاعيش كل روح شعري عن طواعية ورضى ، لا ان اقرأ شيئا لا يعلم ما هو الا الله والراسخون في العلم .

« في شمسي دوار » لفواز عيد . أعترف مسبقا ان اسم هــذه المجموعة الشابة قد اجتذبني منذ أن اعلنت الاداب عنها خاصة وانني قد استمعت الى شاعرها ذات أمسية وأعجبني انشاده لانني أحسست بصوته حزينا يحمل جوع شعب كامل ترك وطنه وألفى نفسه جــائعا على كل درب وتحت كل مصباح ليؤدي فريضة طواف صامتة مجهولة .

قرأت المجموعة للمرة الثانية لاحاول الكتابة ، فالمتعة الشعرية شيء والبحث عن مواطن هذه المتعة شيء اخر .

الى أين وصل هذا الجيل المتفتح تحت هذه الشمس الدائخة ؟ وهل استطاع ان يعبر عن نفسه وحاجاته في شعره ؟ أم ما زال يخبط على غير هدى ؟ وماذا يريد هذا الشباب منا ؟ لماذا لا يريد الاعتــراف بوقار الشعرات البيض في رؤوس الاخرين ؟ ألأنه أحس انه مجبر على ان ينظر الى القمم البعيدة اكثر مما ينظر الى نفسه ؟ وان ينكس رأسه راضيا بمعطيات الاجيال السابقة ؟

قد يكون هذا أو ذاك أحد الاسباب التي تدفع هؤلاء الشبــاب الى الرفض المر والوقوف باعتداد امام ما يريدون الحصول عليــه ، وتحقيقه وما يريده لهم الاخرون من صنع وتحقيق ، فاذا فشــلوا في احداث الانسجام ارتفعت أصواتهم جائعة غارقة بشيء من الفوضى والقلق والخيبة بالضحك الصاخب حينا وبالصمت والاكتئاب حينــا آخر . انه جيل يفتح عينيه تحت شمس زائفة على عواصف ترتفــع في آفاقنا بين حين واخر ، ونكبات مزروعة في صحونا على الحيــاة الجديدة ، وعندما يكتشف هذا الجيل لا جدواه في حديثه وانزوائــه وتفرجه يصحو ليرى ان الزمن ماض لا يلوي على شيء وانه لا يستطيع ان يصنع شيئا للحاق به ، انه محنط كالموميــاء في زوايا المعــاهد والجامعات يتحدث ويتحدث ثم ينتصب عندما يبرد الجرح ويثور الالم ليعلن انه قد نضب :

مضغنا الزمـان ..
مضغنـــا الاحاديث في مذبــح الركـن ..
قلنا : نضبنـــا
تسابقنا .. فـي الصقيع المدد فيها ..
العقـارب ..
حتى تعبنــا

ان الجامعة هذا المشع الحضاري الكبير لم يعد قادرا على احتواء هموم شبابنا ، وان كل ما يكسبه هذا الشباب هنا لهو صداقات عـلى الموائد تكر عليها الاعوام ويتفرق الصحب مخلفين أعقاب لفافات مقتولة على الموائد وأيد ملوحة في الخاطر كل جناح يقصد أفقا نائيا ، ملوحة دونما أمل بلقاء جديد :

سأروي
اذا اتكأ الليــل .. فــي خاطـري
في قراري
ســأروي
وان في ضباب الطريق الــى الريح ..
يومـــا
تناستني الريح ..
أروي

عن الاصدقاء القدامــــى ..
مضــوا
نشروا الاجنحه
أشــــاروا مـع الريــح ..
في المنحنى
وزفتهم الطرق الجامحه

والنهاية الحزينة المتفجعة تبقى عالقة متأرجحة في البال تأرجــح الامواج القلقة التي صلب عليها لياليه الطوال فهي جلاده الامين الذي لا يســأم :

سأروي لكم أصــدقائي القدامـــى ..
احـاديث وجد
بصدري قديمه

عـن البحر
عن عابـر صلبتـــــه الرياح عليــه ..
معي
وجلادنا الليـل ..

شيخ
طويل
عريض القفا

واذا كان لا يقوى على الفراق المض فسيبقى يتحسس حـبوله اطياف اولئك الاصدقاء يتلمس شخوصهم في عتمة لياليه ويمد يديه ليقول لهم ويقول بعد ان رحلوا لينفث الدم العالق في صدره مغمض العينين لا يريد ان يفتحهما ليرى نفسه وحيدا :

سأغمض عيني

أروي لكم اصدقائي القدامى
فظلوا معي
لا تقولوا : كفى .

لقد وقفت وقفة ليست بالقصيرة عند احدى روائع هذه المجموعة ـ في نظري على الاقل ـ لانها تاج اختلط فيه الدم بالماس ، والتفجع باللهب ، والفناء في موكب الجنازة .

وقبل اليوم كان الحب سلوى الشعراء يغرقون في وصف لياليه الهانئة وينغزلون باعطاف المحبوبة ونهودها ، ومتى أحب الشاعر الحديث هنا عاد ليلتف بشيء أسمى من هذا وأبعد منالا ليهيل على حبه الوانا من « الف ليلة » ومسحات من صوفية الشرق ووجدانه ، ان المرأة عنده شيء اكثر من متعة ، ولكن المرأة الشرقية تحاول ان تقنع نفسها اليوم بأنها لا تريد ان تكون حلما يتجلى في لحظات من الاشراق الصوفي الشعري انها تركض وراء البريق ، اذن فالخيبة مفتوحة امام فقر الشعراء :

شهرزاد
شهرزاد
كلما فتشت في بغداد عن قرط وشالْ
عن سوار ناحل ..
عن خاتم ..
عن قوس فضه ..
قيل : بغداد كوى مفتوحة في عرض دجلهْ
ـ ربما خاتمها يسقط من اصبع طفله

فالحب هو ايضا رحلة جائعة ، رحلة خلف مجهول شارد نطلب منه عطاء ، نطلب منه شيئا نحيا به بعد ان أعيانا البحث والطواف :

شهرزاد
ضنت الريح علينا فامنحينا
واذا جئناك حيارى
وقصدناك ..
تلوب الخيبة الحرى بعينينا .. اعذرينا
واذا قلنا انتهينا .. باركينا .

انه الشوق الى المجهول الى ماء علوي نطهر به أدران آدميتنا الى شيء يشبه ان يكون رحلة لطير جائع في صفاء ليال قمرية .

***

واذا عدنا الى تحليل ما بين الشباب والشيوخ من تناحر وخصومة وجدنا هجوم الشيوخ يتركز في الدفاع عن اللغة والاوزان الشعرية المتوارثة وهو رأي لا أشك لحظة في صوابه ما دامت غاية هؤلاء هي الدفاع عن اولى مقومات قوميتنا والمحافظة على صلتنا بتاريخنا العربي، وحجة اخرى سليمة يشهرها الشيوخ هي ان بعض هؤلاء الشباب يحاولون القفز عن الحواجز اللغوية بحجة التجديد والابتكار لانهم لم يتسلحوا بهذه اللغة من قبل ولم يتقنوها وفي رأيي ان بعض الاقلام الشابة قد أثبتت حبها للغة وقدرتها على تكييفها لامتصاص الانفاس الشعرية دونما حاجة الى ضغط لهذه الانفاس . أثبت حجازي ببساطة كلماته ولغته انه شاعر ، واثبت الصوفي بحرارة كلمته انه شاعر ، وكانت اخيرا هذه المجموعة الشابة علما اخر فوق اقواس الشعر العربي الحديث . ان ما يميز هذه المجموعة عن سواها هو جدتها وصدق النبرة فيها والحزن المنتصب في ارجاء عباراتها .

شباب يقف امام كارثة لا يستطيع ان يفعل شيئا يرى الرياح تنهب كل شيء امام عينيه ولكنه مغلول لا يقوى حتى على الصراخ .

وصاحب هذه المجموعة نموذج لهذا الشباب العربي الشريد . ان بيوت قريته المذرورة على شاطىء البحيرة قد تهدمت وحرم منها ليعيش بلا وطن بلا استقرار بلا غاية ، يمضغ حزنه وضياعه وصمته وينقلب الى مراقبة الناس الذين يحاولون ان يعيشوا ليلهم كاملا ، براقب ليعيش ولكن الجرح لا يرحم :

تزحف الانغام من كهف .. لكهف
وعروق البوق تلوي
وتدب النشوة الحمقاء فيهم .. ثم تذوي
ويرش الكهف في الاهداب ألوانا سخينهْ
توثق الاقدام بالبوق .. فلا تدري :
متى كانت رزينهْ

بعد هذه الرقصة المائجة تحت الالوان الساخنة يتسرب البرود والعياء وينتهي عمل المخدر وتثور الجراح عنيفة قاتلة ويفيق الشاعر على صقيع تجربته ويدب الذعر فيه من جديد :

ليلة ضاعت ..
وتتلوها الليالي
باردات ..
أعين جوفاء يقعي الذعر فيها
راحل الانغام يغرينا .. ولكن
قد عيينا
تعبت اقدامنا ..
في الكهف ريح باردهْ ..
وارتمت منهارة في الليل عين جامدهْ ..

انه يتطلع الى الخلاص الى ما يغسل احزانه وجوعه وسواد لياليه وانطواءه . انه بحاجة الى ما يبعث حياته جديدة ناصعة ، الى قطرات مطر ترن في قرارته تزخ على وجهه تعيد الى تقاطيعه المنحوتة بعض نضارتها وشبابها :

الله ما أصفاك !
أنت اذن هنا ؟!
الله ما أصفاك !
يرشح في صميم العظم دفؤك .. يا مطرْ
لا بأس ..
جدراني مغبرة
وأنسجة الكروم حزينة
لا بأس ..
ينسفح الغمام على مدى وجهي ..
يبلل قامة الاحزان من حولي ..
يزخ ..
يزخ ..
يرشح في صميم العظم دفؤك
يا مطرْ

***

لقد سجل الشاعر بعض اللقطات الجميلة مكتفيا بالايماء الموحي وباللفتة اللبقة . انه يضيف الى أعمال الشعر الحديث غنى وعذوبة وبكارة ، ففي قصيدته « اندلسية » يفرد الشاعر مقطعا لوصف الراقصة في معبد الرقص :

مثلما يرعش في ذعر الخريف
الورق
وردة حمراء ..
في بركة ضوء لاهب ..
تحترق
خطوها الذاهل صمت ..
شهقة في اثر شهقهْ
ويذر الالق الزاهي ..
على زنبقة الاذرع ..
سحقهْ
خبب في الصدر ..
ايماء حيي
ومزامير لعرس وثني .

والقمر السابح بخفر بين أساطير الشرق وغلالاته الشفافة ترتفع الاكف اليه ليلة تمه ، لتباركه ، وتدور الالسنة لتنسج حوله وحول ابنة عمه من النجوم أساطير وثنية كثيرة . لا أدري لماذا احب ان أترنم كثيرا بذكر القمر ، لأنه يذكرني بأصوات فلاحي قرانا تتناهى شجية مجروحة أيام الحصاد تحت صفائه أم لانه يمثل رمزا من رموز الوصول

والاطمئنان . ولقد اختار الشاعر عروس بادية الشام « تدمر » ليعجن من طين تاريخها ، تاريخ انفة زنوبيا وكبريائها رمزا لنكبة وطنه السليب . واذا كنت قد فهمت القصيدة فان القمر يمثل الامل للاطفال الذين نهب الرومان بلدتهم وهدموا بيوتهم ، ان القمر صديق لهم ثريا معلقة في سماء عيونهم ترتعش لاحزانهم ودموعهم :

ومر البدر في صحراء أعينهم ..
فبللها
وفي عينين سوداوين ..
طافت غيمه
دمعه
فاشعل في قرار سوادها
سمعه°

ولكن الحوت يطارد القمر محاولا اصطياده وابتلاعه :

ـ أحبائي
روى العراف .. أمس ..
على الطريق
حكاية الحوت
اذا يقتات بالقمر

وقال :

يظل يبحر خلفه ..
وينوش اطرافه
ويطعم للصغار الجائعين ..
هناك ..
أصدافه

جميلة هذه الرموز التي جمعها الشاعر واستطاع اداءها اداء شعريا محافظا على التسلسل المنطقي الذي يتطلبه المزج بين التاريخ والاسطورة من جهة والشعر والاقصوصة من جهة ثانية ، واخيرا من ناحيتي الوزن الشعري الهادىء والربط المحكم بين كافة هذه العناصر بحيث تكون مجتمعة قابلة للتوجيه الى تاريخنا القديم مرة والى التاريخ الحديث مرة ثانية .

ان قدرة أي شاعر تتجلى في مهارته على خلق الكلمة الشعرية والعبارة الموحية في احياء الموات من طين الانسان الشعري .

الكلمة الشعرية هي التي تخلق نابضة شفافة بحيث لا تدس وجهها السميك بيننا وبين ما نريد أن نعبر عنه ـ كما يحلو لبرغسون ان يقول ـ بل تعود براقة كآنية تعاورها الناس والزمان فانطفأ ألقها ورنينها حين امتلأت مسامها بالدهن اليومي ، ويأتي الشاعر اخيرا ليمسحها براحتيه وليطهرها بلهبه .

هذا ما استطاعت المجموعة ان تثبته ، ان تثبت قدرتها على اقتلاع الكلمات بجذورها من مكانها اليومي لتجد نفسها في حديقة الشعر :

من قديم كان يحكى
من قديم .. من قديم°
قصة تنبت بين القصب المتعب ..
تنمو
عند اجفان السواقي المثقلات
يرتخي من حولها الصفصاف ..
يهرم
ومع الريح ليالي الصيف تحبو ..
تتكوم

الى جانب محافظتها في هذه القصيدة وبعض القصائد الاخرى على الايقاع الموسيقي الذي تهواه الاذن الشرقية ، فهي تردد بعض أبيات القصائد ترداد الاقفال في الموشحات :

فتعرت في حقول الليل قامات القصب
ورذاذ من عيون النجم صلى ..
وانسكب

وتنتهي القصيدة بهذه الابيات الجنائزية الوقع :

وتجوس الريح أقواس السكينه ..
وتروي من جرار الليل قامات القصب°
ويدق النهر في الشطآن أجراسا حزينه

ومن مرارة الغريب الضائع في اسواق المدينة وفي دهاليز المعامل يدخلها الرجال قبل بزوغ الشمس ويغادرونها عندما يهبط الليل لتقذف بهم بعد أيام واحدا بعد واحد جثثا معطوبة الرئتين غريبة الملامح الى مقبرة نائية ، من هذه المرارة كانت قصيدة « الطريق الى المقبرة » . ففي صبيحة العيد والصقيع يحاصر انفاس النوافذ المغلقة والدروب خالية يقصد جماعة مقبرة نائية لا يعرفونها ويصادفهم شيخ عائد لتوه من المقبرة فيسألونه :

ـ يا عم ..
أين الدرب نحو الغاب ؟
نحو الشارع الغربي
نحو المقبره

قالوا :

« نمر بحيكم هذا بعطار بأوله ..
وآخره بقايا قنطره »

وعندما يسألهم الشيخ عن أكاليلهم التي يحملونها ومن أي بلاد هم يثورون في وجهه :

ماذا تخبىء للغريب عيون دوركم ؟؟
.. ترى ماذا تخبىء للغريب ؟
نمضي .. وتخطف كل زاوية صديقا ..
أو حبيب

انهم غرباء بسطاء لا يريدون شيئا بل يذرعون ايامهم بحثا عن كوخ واطفال وامطار .

ونام ..
ملء عيوننا شوق لمزرعه
وكوخ عامر بالصبية اللاهين
بالامطار
صوت الديك خاط ظلامنا بالصبح ..
وانتحر الزمان

***

ولا اود ان اختتم هذه الدراسة قبل ان اتحدث عن الاوزان الشعرية في المجموعة فأوزانها طويلة في اغلب القصائد . ففي القصيدة الاولى « الابواب » تختفي القافية تماما وتظهر عوضا عنها وحده النشيد بحيث نستطيع ان نجمع هذه القصيدة في ثلاثة ابيات فقط « طارق ـ تمثال ـ المطر » .

وفي قصيدة « لا نقش للغرباء » نلمح مثل هذا البيت الشعري الطويل : اواه

كم اشتاق : لو اطويك ..
ملء سواعدي
اطويك .
انهل نهلة الصديان من حقيك
اعصر توت حلمة كل نهد فيك
مثل الموت
اعصر كل نبض في دواليك الحرون

وفيه خمس عشرة تفعيله من الكامل وهذا القدر من التفعيلات يحتاج الى مقدرة على اطالة النفس الشعري ..

***

انه صوت من جيل عربي جائع برهن فيه الشاعر على ان شبابنا قادر على العطاء اذا فتحت امامه السبل ولا يحتاج الا الى الكلمة الصادقة الخيرة .

ان نظرة الى عناوين قصائد المجموعة « الابواب ـ شهرزاد ـ العقب والمرايا ـ الفرسان ـ اندلسية ـ الاطفال والقمر ـ الراوي ـ لا نقش للغرباء » تحمل وتبين جدة هذه المجموعة الشابة وخصب عطائها.

جامعة دمشق
احمد طه الرفاعي